

الراعي والرعيّة - رعاية متبادلة

"فأطلبُ إليكم أن تكونوا مقتدين بي"

أسّس بولسُ الرسول الكنيسةَ في كورنثوس على أسس المحبّة الأخوية والبشارة ببسوع المسيح. ثمّ ألمه كثيراً أن يسمع بينهم افتخارات وادعاءات وانقسامات بسبب التحزّبات. وفي هذا المقطع من رسالته نسمع كلمات إلهية تشير إلى عمق حقيقة العلاقة بين الرعيّة والراعي، وبالالتجاهين.

تطرح هذه الكلمات سؤالين باتجاه الراعي ومثلهما باتجاه الرعيّة. السؤالان هما، ماذا تنتظر الرعيّة من الراعي؟ وماذا تقدم الرعيّة للراعي؟ ومثلهما على الراعي: ماذا يقدم الراعي للرعيّة؟ ماذا ينتظر الراعي من الرعيّة؟

تنتظر الرعيّة من الراعي أن يكون صورة مشابهة، إن لم يكن تماماً فكثيراً، ليسوع المسيح الراعي الصالح. لا نستغرب عندما يدخل الكاهن إلى بيت، فتنادي آلام ابنها الطفل لتعرّفه على الكاهن قائلة: قبلّ يده هذا "يسوع"!

قد يبدو هذا الأمر مستحيلاً، بالمطلق نعم، لكنّه مطلوب نسبياً. هكذا كان بولس، وعديدون جداً هم القديسون الرعاة على صورة "الراعي الصالح". هكذا يستطيع الراعي أن يسير في مقدمة رعيته "نحو مراعي خضر وماء الراحة"، وذلك بالمعرفة والنسك والصلاة والتعليم وتبني آلام الناس وحاجاتها.

وتقدم الرعيّة أيضاً الرعاية للراعي! قد يظن البعض أن الرعاية واجب من طرف واحد من جهة الراعي. والحقيقة، أنه بمقدار ما ترعى الرعيّة راعيها يستطيع هذا الأخير تقديم الرعاية الصالحة. فكيف ترعى الرعيّة راعيها؟ لا شك أنّ هناك أموراً عديدة روحية ومادية، نفسية وجسدية. وأهمّ الأمور هي المحافظة على الوحدة والمشاركة في الحياة الكنسية. ولكن حسن أن تتساءل الرعيّة السؤال الآخر: ماذا ينتظر الراعي منها؟ وحين تقدّمه له تكون قد قامت برعايته. ماذا ينتظر الراعي من الرعيّة؟ لا ينتظر

الراعي لا كرامات ولا حاجات. ينتظر الراعي أن يشعر بأن تكريسه وعمله وسهره وتفرّغه ووعظه لا يذهب سدىً. أي، ينتظر الراعي تجاوب الرعيّة مع الكلمة الإلهيّة وإثمار الروح في حياتهم. بكلمة أخرى، ينتظر الراعي من الرعيّة الطاعة للكلمة الإلهيّة، التي يبشّرهم بها. ما أصعب الوحدة على الكاهن والخادم! ولكن متى يشعر الكاهن بالفشل والعزلة والوحدة؟ حين يشعر نفسه ينادي في برية ولا يسمع صدى لصراخه! "أعدوا طريق الربّ، اجعلوا سبيله مستقيمة، قد اقترب ملكوت السماوات".

وماذا يقدّم الراعي للرعيّة؟ يعرف الراعي أنّه يقدّم لرعيّته أصعب وأحوج الأمور إليهم. إنّهُ يقدم الدعوة للملكوت في عالم يتسابق من أجل تثبيت بنيّه في هذا الدهر؛ إنّهُ يقدّم الكلمة التي يَصُمّ العديدون آذانهم عن سماعها، وينساها كثيرون بعد قليل إذا سمعوها، ويعمل بها الأقلّ والنادرون حين يسمعونها! إنّ الدهريّة تسرقُ صوتَ الملكوت من آذان الناس المصروعة بضجيج طلبات ورغبات الدنيا. "إنّ النحت في الصخر أسهل من النحت في البشر"، يقول المثل. أقسى مرض يعاني منه إيمان شعبنا هو النسيان، وقبله الإهمال، وقبلهما الانهماك بالدنيا حتّى سقّف الرأس. ولكن الراعي يعرف تماماً، رغم الأذان الصماء ورغم نسيان السامعين، وإهمال العاملين، أنّه يقدّم للناس أحلى وأهمّ وأحوج الأمور إليهم. تأملوا! كلّنا نتعشّق العديد من أمور الدنيا، ولكن لاحظوا أنّنا في العمق قد نحتقر أو لا نحترم كثيراً منها. بينما ننظرُ كيف مجرد كلمة من الكتاب المقدّس واحدة لها سلطة علينا ما بعدها من سلطة، تفوق كلّ غواية الرغبات وضغط الحاجات. وأمثلة الرهبان والمكّرّسين والخدام، الذين "تركوا كلّ شيء وتبعوه" هي براهين قاطعة على ذلك.

لذلك في العمق، إنّ البشارة تحمل وجهين: وجه الصعوبة، ولكن وجه الحقيقة والسهولة أيضاً. لذلك الكاهن يقدّس ذاته ويقدمها ذبيحةً كسيّده، فيصير بنسكه وصلاته وخدمته نبع حياة ومثلاً لرعيّته. الكلام هنا يطول ونكتفي منه بصورة البجع الذي يجرح نفسه ليطعم أولاده، إنّها صورة ترمز أيضاً للمصلوب المطعون يخرج من جنبه دم وماء، نأكله نحن لحياة أبدية.

هذه في الحالات المثاليّة، ولكن ما القانون عندما لا تُقدّم، وللأسف، الرعاية الحقيقيّة من أحد الطرفين، أي عندما يقصّر الراعي أو تهمل الرعيّة؟

في حال إهمال الرعيّة دورها في رعاية راعيها، كما حدث بين بولس ورعيّة كورنثوس، فإنّ كلمات الرسول هنا تعطينا القانون المسيحيّ لموقف الراعي. لقد "عاتب" بولس بقوة ولطف. لقد قال "إنّنا

مجعلون للموت"، لا يمكننا ولا نريد أن نطلب مردوداً لا من كرامة ولا من حاجات. فلنكن نحن كالجُهلاء وأنتم كالحكماء، ليحسبنا العالم ضعفاء ويحسبكم أنتم أقوىاء. لنكن نحن مهانون وأنتم مكرّمون، سنجوع ونعطش ونعري ونلطم، إن شئنا من الناس أو حتى منكم سنبارك وإن شئنا علينا سننصرّع. إنها، نعم، لهجة الأب الحنون الذي لا يترك ولده المخطئ خارج أحضان رعايته وحبّه وعطائه. نعم، هذا صليب يفرضه الحبّ الأبويّ، أن يداوي الراعي لاطمه وشاتمه، إنّ المحبّة عند الراعي هي محبّة الأب التي يدميها لطم أولاده وخطيئتهم معاً، ولا قرار لهذا الراعي الأب، لا في توقّف اللطم ولا بتخفيف الشتائم، لا قرار له إلاّ برفع الخطيئة! هذا هو القانون الذي يجب أن يلتزم به الراعي حين تهمله الرعيّة.

وماذا لو قصر الراعي؟ تجيب على ذلك قصّة نوح وأولاده. لقد عصر نوح العنب وشرب، لأوّل مرّة، من خمرتها دون أن يعرف تأثيرها فسكر، وتعرّى. فدخل أحد أولاده ورأى والده عارياً فهزأ به أمام إخوته. وجاء أخواه ورأوا والدهما نائماً عارياً، "فستروه". ولما استيقظ نوح، وعرف بما حدث، قال لابنه ستكون عبداً لإخوتك!

كل شيء في إنسانيتنا محتمل ولو كان غير مرغوب به. تقصير الرعيّة ممكن كما تقصير الراعي أيضاً. لا يرمى كلّ من الراعي والرعيّة بعضهما البعض في الحالات النظامية والمثاليّة فقط! وإذا ما اختلّ الوضع المثالي يتراشقون التهم والكلمات الجارحة. هذه الأخيرة قوانين الدهر والشارع، وليست أبداً قانون الرسول أو الرعيّة - الكنيسة.

سنسعى معاً، وفي تاريخنا ستمرّ لحظات وهنّ ولحظات قوّة. وسيلنا أن نجعل فترات القوّة كثيرة وقادرة أن تمحو من الذاكرة لحظات الضعف. صلاتنا أن نصل إلى الوضع المثاليّ للرعيّة والراعي. وهاكم قانونها المدهش، إنّ كلمة بولس الرسول الرّثانة "يا إخوة أطلب إليكم أن تكونوا مقتدين بي". هكذا تصير الرعيّة فرداً فرداً راعياً. هذه كلمات راعٍ أعطاه الله نعمة في نسكه المقدار من السلطة أن يقول "اقتدوا بي". وهي كلمات لرعيّة أحبّت راعيها لا لتلاطفه ولا لتجادله ولا لتؤمّنه... وما شابهها من واجبات تافهة أمام مسؤوليّتها الحقيقيّة، رعيّة تقتدي براعيها الذي يقتدي بالمسيح. رعيّة تقدّس ذاتها مع راعيها الذي يقدّس ذاته لأجلها. فيصير معنى "ملكوت الله في داخلكم" أنّ "ملكوت الله فيما بينكم"، آمين.